عن مقاتل الطالبيين في العراق الحديث:

رسالة النجف الى العالم

شبلي ملاط

حديثنا فصل في مقاتل الطالبيين، وهو حديث خاص بما للمرحلة التاريخية التي نجتازها من دقة، وارتال الجيش وخيوله في كل قدس من الاقداس العراقية، البصرة وكركوك والموصل وبغداد والنجف، وهو حديث خاص بذكرى أليمة تعيدنا الى اول هذا الشهر القاسي في تاريخ الامة، بل في تاريخ الفكر: ليلة قتل فيها طالبيان عظيمان، محمد باقر الصدر وبنت الهدى، فاستأثر الظلم بالنجف الاشرف، وغيّب اعظم اصوات الفكر العربي والاسلامي في القرن العشرين؛ بل الحديث خاص في مرحلة مميزة بأخطارها المحدقة، وليس حجم الاخطار اقلّ من واقع الآمال التي يدق احياناً ناقوسها باب التاريخ العتيق، ولا ندري فيمَ هل نتمهل، وكيف، او هل نمضي قدماً، وكيف.

الحديث خاص ايضاً بالمعنى الشخصي للعبارة، وهو الحديث الاول والوحيد الذي اسهم به بمناسبة ذكرى غياب محمد باقر الصدر منذ انتهى ذلك الكتاب الوسيط الاكبر الخالق (١). ويعرف الاصدقاء التي دائماً تأخرت عن الاشتراك في انه مناسبة تتعلق بغياب العلامة الفقيد بعدما انبعثت الابحاث التي امتدت زهاء عقد وتصف عن فكر الصدر وبيئته النجفية في ابعادها التعليمية والدولية، وان لهذا التلكؤ اسباب عدة، فثم بعضها لما صدرت الطبعة العربية للكتاب: ومنها ما يتعلق على السطوح، ومنه ما هو دفين في الاعماق. ومما يطاول حول الاحاطة به، وهو مرتبط بالانتفاضة الى ما عدا الصدر، لا سيما اهتماماً بكتب الفقه الكلاسيكي شما القوانين الوضعية، وقد ازدانت المكتبات العربية والاجنبية بدراسات عديدة عن فكره ومكانته لا يسمح الوقت بمتابعة تفاصيلها في برلين ولبنان والولايات المتحدة واوروبا.

بل هذا الجديد الذي يصدر بانتظام بعنه "النظام الصدري" – او "المنظومة الصدرية" – وهو النظام المفتوح على التأويل المفاد باستمرار، كل مرة بقراءة اخرى تزيد في النظام عمقاً وتألقاً، وتفتح بنفسها المجال للتأويل الجديد اخذاً ورداً وزيادة وحصراً، وفي عبارة المفكر الراحل الكبير جون وانسبرو في كتبه عن "الدراسات القرآنية"، والتي استعنا بها في بحث مقارن عن علوم القرآن في النجف ولندن (٢)، فإن الميزة المحورية لكل سفر عظيم في تاريخ الانسان هي "قابليته للتأويل" الخلّاق. لذا اذا كانت القابلية للتأويل حقيقة ثابتة في ما نسبه الانسان من اعمال شعرية، فقابلية تأويل الشعر لا ترقى الى ما فوق التاريخ – بمعنى انها تصبح ملازمة لكل جيل فيه بغض النظر عن الظروف الاجتماعية التي تحيط بهذا الجيل – الا عندما يكون الشعر كما في آثار شكسبير والفردوسي وابي الطيب المتنبي "خالداً"، أي متفوقاً.

غير ان المنظومة النثرية – وبالاخص المنظومة التي تندرج في ما يسمى اليوم بالعلوم الانسانية (اقتصاد، قانون، تاريخ، سياسة)، فهي تحتاج الى اوساط خاصة ونوعية مميزة تفصلها عن المنظومة الالهية طبعاً وعن عالم الشعر من باب ما يقتضيه التسلسل. فالشاعر، كما هو في نفسه يقبره الابد en lui me me letrnite Le telqu change: الشاعر يختصر موضوعه في الكلمة، ولاختصاره هذا سر قابلية الزمن لتأويل ما يحويه شعره من الفاظ، فتوحي كلمته بترفع شعره عن الزمن من باب تأويله المستمر واعادة احيائه جيلاً بعد جيل حتى كان "خالداً". اما عالم الانسان، فإن تناوله للزمن مرهون عموماً بنقيض الاختصار: فأعماله نفسها شرح مطوّل ومنظوماته تغنى في التفصيل العلمي والاستعانة المفتوحة بآثار العلماء الآخرين ممن سبقوه في مجاله. واذا كان الشعر يبقى على الفطرة ما قبله من بشكل التقليد فيه زوالاً سريعاً وموتاً محتماً، فإن المنظومة النثرية في العلوم الانسانية منظومة تعتمد قبل كل شيء على التقليد المبوّب في مواضع كثيرة. ولا يأتي جديدها الا بعد تقليد طويل يستوعب ما قبله، فيبرز تماسكها "الجديد" نتيجة الجهد والعناية بالسوابق المعتمدة، وهكذا يصدر كتاب بمستوى "اقتصادنا"، وهو الكتاب الذي يختلف عن جميع ما عداه من البحوث في ما يسمى بالاقتصاد الاسلامي من طريق شواهده العلمية، وجمع محمد باقر الصدر فيه لرافدين عميقين من علوم اقتصادية ترتكز على امهات الفقه الاسلامي من جهة، وعلى الاقتصاد الغربي من جهة مقابلة، المسيطر آنذاك في ساحة العالم الثالث، وهو الاقتصاد الماركسي.

من المناسب التوقف هنا في الحديث عن تركة محمد باقر الصدر الفكرية، لأن ما سبق لا جديد فيه بالنسبة لمساهمتنا في فكر الصدر، وهو موجود على نحو اكثر تفصيلاً في مساهماتي المنشورة. هذا في الحقيقة الوجه الدفين وراء التأخر المستحي دائماً عن تلبية الدعوات لإحياء ذكراه العطرة: لأنني اجدني اعيد صوغ استنتاجاتي السابقة من دون زيادة تذكر، لا بل من دون زيادة على التأويل الذي تطالبه المنظومة الصدرية، وقد بت غير اهل بها الا اذا صدف، كما حدث وحصل عند نشر الكتاب باللغة الفرنسية، اكتشاف نص لم يكن معروفاً – او على الاقل لم يكن متوافراً لدي (٣). اما وقد زال الكابوس عن النجف بعد ثلاثة وعشرين عاماً من حصرته، فلا بد لدراسات اخرى ترتبط ببيئة انكشف عنها اللثام فجأة بزوال الطغيان المطبق على مدارس النجف الاشرف في شعر رموز التاريخ السالف وفيضان جو شعر مقتل الطالبي الكبير، كما اشار اليه الدكتور محمد ابو علي في كلمته الهادفة.

وهنا لا بد من التعرض للصعوبة التي نجابهها، وهي صعوبة وصف الانجلاء المفاجئ للعتمة المحتمة على واقع احتلال الولايات المتحدة للعراق. واذا كان ليس عندي من شك في ان الصمت الاسود في النجف ولّى الى ما لا عودة، الا ان المخاطر نصب اعيننا من استلاب فكري من نوع آخر، وصمت من نوع خاص لا نزال بصدد رصد معالمه.

في ظل صعوبة تدعو اصحاب الفكر الى التروي، وعقد جلاء الكابوس عن النجف ولد شهر نيسان يساورنا القلق ما بين الدهشة القاتلة بشديد الحذر، الى الدرس الصامت والتفكير في معطيات المرحلة الجديدة ومجابهتها قبل ان تحل الكارثة عينها. والسؤال، وهو سؤال الباحث في فكر مدينة معاصرة عاش مع كتابات ابنائها زهاء عقدين من دون ان تتسنى له فرصة زيارتها لما كان هذا البحث مقضياً عليه من التشخيص بصاء، السؤال الملحاح ينتج من امكان العودة الى مدينة النجف اليوم: ليس فقط الموحدين بالبحث في فقه النجف المعاصر. لقد صار ممكناً لكل منا ان يزور مدينة النجف ويسلّم على اطلال العائدين اليها، من محمد بحر العلوم الى محمد باقر الحكيم الى آل الإمامين الخوئي والسيستاني، والى اهل محمد باقر الصدر جميعاً: وفي طليعتهم جعفر نجله جعفر.

السؤال اذاً، مع بداية عودة اهل النجف المهجرين الى ديارهم ومدارسهم، هو سؤال عن هذا "التحرير" لمدينة النجف، واذ كان كافياً ان يعودوا اليها لكي تتحرر، والاحتلال الاميركي نصب اعيننا، هو سؤال لنا جميعاً، وهو السؤال الذي طرح على اصدقائنا ولاحبائنا، ومنهم رحمة الله على شبابه من دفع ثمنه غالياً – السيد عبد المجيد الخوئي.

ليس عندي من شك في ان ما حدث في العراق هو احتلال: بل الاحتلال هو الوصف القانوني الدقيق للحالة الراهنة. اما ان يكون الاحتلال تحريراً، فهذا، مهما كان من عودة اهل النجف اليه، ما لن يثبت الا اذا اجتمع شرطان: الشرط الاول تحصيل حاصل، لن يختلف اثنان فيه اليوم، وهو امساك العراقيين الشرفاء بمقادير بلادهم. اما الشرط الثاني – وهو موضوع حديثنا – فيتعلق بكيفية الحفاظ على تاريخ فريد في القرن العشرين، ابتداءً من ١٩٠٩ وحتى يومنا، وهو رفض الاعتداد على العنف سبيلاً في عالم النجف في التعاطي مع الآخرين. والانتقاص من هذا التراث بالغ الاسى الذي يرافقنا جميعاً من التوتر الحالي في الحوزة، وهو المستقى من التراث النجفي الثابت، والذي يقضي بألا يدفع عالم واحد بحياته لما له من آراء – والعالم عصب الحياة النجفية ومرادفها لجميع ابناء النجف ان في الحوزة او في المجتمع الاوسع. فالحرية خاصة النجف العظمى، قوامها المنافسة والسجالات خلال ما يعرف في مدارسها "بالمذاكرة" – اي التساجل على العلم والريادة – وهذه المنافسة الفكرية هي شيء عظيم لان العنف كان دائماً خارج دائرتها.

واذا كان صحيحاً ان مقتل طالبي آخر في الصرح الكبير، في الصحن الاقدس، جاء نتيجة الغلط، جاء خطأ او سهواً او سوء حظ، وان طعن السيد عبد المجيد يشكل عارضة اليمة واستثناء مؤسفاً لتراث الحرية النجفية كما نرجوه – وقد تكون الامور على غير ذلك، واوحى الصديق الاستاذ نوّاف الموسوي تشابك مصالح واشرار اكثر تعقيداً – فإن مقتل الطالبي في الصرح الاعظم يشكل الطليعة في تاريخ النجف الممتد على اكثر من قرن، لان ريادة المجتمع النجفي لم تر يوماً سيف عالم مسلّطاً على عالم آخر، حتى في احلك ايامها خلال الحرب الايرانية العراقية. واحتراماً للتراث، بات ضرورياً وملحاً ان يتم تحقيق وافٍ، تحقيق شفاف وحر، في ملابسات هذه الجريمة، دفاعاً عن تاريخ نجفي لم يأت العنف اليه يوماً من اهل النجف على بعضهم البعض. ودفاعاً عن شجاعة عبد المجيد الخوئي وتركه له ضد الطغيان عرفته مشدداً على الاهل الى الانتفاضة الاولى، بل دفاعاً عن مستقبل نجفي للعراق.

وفي معرض هذا الحديث في مآثر مقاتل الطالبيين، وفجيعة النجف الحرّ من اعظم تراثه، ان تسمحوا لنا استذكار خلاف علمي اكرهه اليّ عن محمد باقر الصدر مع العلامة الراحل حنا بطاطو (٤)، ومع كتاب مهم في تاريخ العراق الحديث، "جمهورية الخوف" لسمير الخليل، المعروف اليوم بكنعان مكية (٥). فهي دراسة تعود الى عقد (٦): حاولت وضع جهودي المتواضعة لبالة سفر بطاطو العظيم ومساهمة "جمهورية الخوف" بما تميز مقاربتي عن مقاربتيهما، وهي محورية النجف في تاريخ العراق الحديث. فإذا كانت عبارة "دولة النجف" و"الامة الشيعية" قد اصبحتا مأثورتين في اية مراجعة علمية للعراق او للتاريخ الشيعي المعاصر (٧) – ويكفينا فخراً حيالها على مد البصر ما تألق من اعلامنا النجفيين اللامعين نذكر منهم فقط من رحل من معاصريهم، السيد محمد تقي الحكيم، والامام محمد مهدي شمس الدين والشيخ راضي آل ياسين، بل اذكر منهم فيلسوفاً نجفياً جاء عمق فكره من وحي دراساته في حوزة النجف الاشرف، المرحوم حسين مروة صاحب "النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية" (٨)، اذا كانت الدولية الشيعية الآن علامة فارقة في الضوء الانسانية اليوم، غير ان خلافي مع كل من كتاب بطاطو عن "الطبقات الاجتماعية" وكتاب "جمهورية الخوف" مختلف، ومحوره هو آلة النجف والمنظومة الصدرية تحديداً، ومفاد الخلاف انه لا يمكن فهم تاريخ العراق الحديث ما لم نلمّ تماماً بالثورة الاشتراكية الفكرية – وعلماها المرحومان الامام الخميني والسيد محمد باقر الصدر – التي وضعت النجف في وسط التاريخ العالمي، فكيف بتاريخ العراق نفسه. ولهذا كله ليس من المبالغة القول اليوم ان المرحلة الحالية منعطف في تاريخ العالم، وقد بات العراق مرتكز مستقبل العالم، واستقراره على مرتكز الحرية. وهذا التضافر بات رسالة النجف في ما هي حرية نابذة للعنف تعطيه انسق استقرار العالم وحريته في "الشرق الاوسط الجديد".

فالنجف تراث استقرار وحرية، عنوانها الترفع في العنف في تعاطي اهل النجف بعضهم مع بعض، وعنوانها التهذيب العظيم الذي طالما شدني الى المرحوم السيد مهدي الحكيم، ولا يزال يغمرني بعطفه المتواصل مع السيد محمد بحر العلوم. هذا التهذيب مرادف في السياسة لنبذ العنف عن القطرة في الساحة العامة. فهو كنز النجف الاعظم، وهو كنز الشهادة، وكنز تراث المستضعفين. فاذا تحول التراث النجفي الحر الى عنوان العراق، كما كان الاضطراب خلال القرن العشرين برمته تهميش بغداد للنجف وقتل علمائه الكبار ممن لم يتحمل حاكم بغداد جرأتهم، انتقل الشذوذ الملازم للقرن العشرين (والشذوذ طبعاً لم يبدأ في القرن العشرين) من احتلال العثمانيين واستبداد الاحتلال اليوم، فينقل الشذوذ الى مرحلة تختلف نوعياً عما سبقها من الكوارث. هذا الشرط الثاني الذي اراه في مأثور مقاتل الطالبيين في صورة العصر الحديث، شرط الحرية العقيدة الفذة، رسالة للعراق والعالم.

ولا بد هنا من حديث مطول في معالم هذه الميزة النجفية التي اعلمها غير مبتذلة، لانها ليست ميزة ضعف او خواء – بالعكس، هي صمود والصدر مصبوح اعزل على نار العدو، وخير مثال على ذلك تلك المحاضرات العظيمة في القرآن سنة وفاة محمد باقر الصدر (٩)، والتي يروى لاوما تليت على حضور اغرورقت فيه العيون دموعاً لشجاعة المحاضر المعاصر في منزله بجلاوزة النظام الاسود، ايام قلائل قبل ان يقضوا عليه في ليلة الثامن من نيسان ثلاث وعشرين سنة مضت.

اما كيف يمكن المساهمة في هذا التراث اللاعنفي، فلا بد من بحث اكثر عمقاً مما هو متاح في هذه المناسبة، ولن انسى ان عظمة النجف وتراثها الحر في صدارة تهالك النجفيين العالمي على الريادة والفكر – بما فيها الريادة السياسية.

واذا كان الابتعاد عن العنف مرهوناً بالاستناد الى المحاسبة القضائية لمن يلجأ اليه، لا بد اليوم من محاسبة المسؤولين – على المستويات كافة – عن مقتل محمد باقر وآمنة الصدر، ومحمد مهدي الحكيم، ومحمد الصادق الصدر، ومن العلماء الذين لا مجال لاحصائهم في الحقبة التاريخية الليلاء التي بدأت تنجلي، ولا بد من معالجة مصرع السيد عبد المجيد الخوئي بالتحقيق الوافي ريثما تتضح التبعات، ولو صعب ترتيب الجهة القادرة على القيام بمثل هذا التحقيق، بل الجهة القادرة على محاكمة المسؤولين عنه. اما ذكرى محمد باقر الصدر، فهي التي لن يتم احياؤها بالتمام الا عندما يمسك العراقيون بزمام مصيرهم – اليوم اليوم قبل الغد – وعندما تبدأ المحاسبة القضائية الجدية لمن امعن في قتل العلم والعلماء زهاء ثلث قرن، وعندما تنشر حقوق الانسان اخيراً في وادي السلام رسالة للعالم.

هوامش:

١ – "تجديد الفقه الاسلامي – محمد باقر الصدر بين النجف وشيعة العالم"، تم عام ١٩٨٩، طبع في كمبريدج عام ١٩٩٣، ويعاد طبعه الآن بالورق، والترجمة العربية صدرت من "دار النهار" عام ١٩٩٨، كما صدرت ترجمة باللغة الاندونيسية في جاكارتا عام ٢٠٠١.

٢ – an In Najaf Readings of the Qur-'
and london: John Wansbrough and
Bulletin Muhammad Baqir al-sadr
of the School of Oriental and African
Studies, 57 1, 1994, pp158-173.

٣ – "اصول الدستور الاسلامي" لمحمد باقر الصدر. منشور في ص [٢٦–٤٨] الطبعة العربية.

٤ – صدر كتابه عام ١٩٧٨.

٥ – صدر عام ١٩٨٩.

٦ – Obstacles to Democratization in Iraq: AReading of Post-Revolutionary Iraqi History Through the Gulf War, in E. Goldberg, R. Kasaba and J. Migdal eds., Rules and Rights in the Middle East: Democracy, Law and Society, University of Washington Press, Seattle, 1993, pp.224-247.

٧ – مثلاً في كتابات الباحث الفرنسي لويزار والاميركي كول.

٨ – صدر في جزءين في السبعينات في بيروت.

٩ – "المدرسة القرآنية"، بيروت ط ثانية ١٩٨١.

محام، بروفسور كرسي جان مونيه في القانون الاوروبي، جامعة القديس يوسف.